باب التربيـة

بعض عوامل الضعف في تكوين الفرد

للدكتور محمد بهي الدين بركات بك

التربية ولغة الاطفال

لزكي المهندس

استاذ التربية بدار العلوم

بعض عوامل الضعف

في تكوين الفرد

وطرق علاجها في الاسرة والمدرسة

لمحيي الدين بركات بك وزير المعارف الاسبق

[جاءتنا هذه الخطبة النفيسة لصاحب السعادة محيي الدين بركات بك وزير المعارف الاسبق وكان معظم ملازم المقتطف قد طبع ، فضنّا بما احتوت عليه من الفوائد ان تتأخر الى الشهر القادم فنشرناها في هذا الباب لأن الوالدين والمعلمين أجدر الناس بالاطلاع على ما فيها والعمل بها]

سادتي : بينما كنت اطالع منذ أيام احدى المجلات الزراعية استرعى نظري ما قرأته لخبير زراعة القصب من قوله إن الفلاح المصري وصل في بعض الشئون الزراعية بفضل مثابرته وارتقائه بزراعته درجة من الاتقان لم يصل اليها العلم الحديث فالتجربة علمت من طرق الزراعة ما يأتي بأحسن الثمرات

قد يدهش المرء لتلك العبارة ولكنهُ اذا فكر أن الحاجة تفتق الحيلة وان الضرورة أم الاختراع عرف كيف تستطيع الجهود المتجمعة أن تصل الى ما لا يستطيعهُ العلماء أنفسهم

هذه شهادة العلماء عن نتيجة ما وصلنا اليهِ بفضل عنايتنا بنباتنا وزراعتنا فهل نحن وصلنا الى بعض تلك النتيجة فيما يتعلق بتربية أبنائنا وبناتنا ؟

بالأسف كلاَّ !

اغشَ أي مجلس من مجالس الفلاحين تجدهم يبحثون في أوان الزراعة الملائم لنجاحها وفي طرق ريها وأساليب معالجتها وأحسن الوسائل لاكثار الانتاج وطرق مكافحة الآفات الزراعية وغير ذلك . واغشَ بعد ذلك مجالس القاهرة تجدهم يتناقشون في السياسة وفي الدرجات وفي أسباب تفضيل زيد على بكر وغير ذلك من المسائل التي تشغل الرأي العام . ولكنك يندر أن تجد مجلساً يتناقش في طريقة معاملة الأطفال وفي أحسن السبل لتربيتهم وتقويم المعوج فيهم وكثيراً ما تسمع الناس ينسبون العيب الى المدرسة والتقصير الى الحكومة ويندر أن تجد من يذكر أن الاسرة هي المدرسة الاولى للطفل وان للطفل ذاكرة كالمرآة ينعكس فيها كل ما يراه وينطبع أثره في نفسه ويلتج نتيجة في أخلاقه وتكوّنه اذا ما بلغ شاباً ثم رجلاً

فهل فكرنا نحن في تربية أولادنا ان نحجم عن ارتكاب النقائص أمامهم وأن يكون الأبوان نموذجاً حسناً لهم ؟ أظن لا

ولعلَّ جمهرة الآباء والأمهات عندنا لا يشعرون بأن عليهم واجباً لأولادهم ولا بأن الأمثلة السيئة التي يراها الطفل متلازمة حتماً مدى الحياة

ألسنا نرى كثيراً من الآباء والأمهات يلقنون أولادهم الكذب ويغمسون فيهم روح الغيرة والحسد بما يقصون أمامهم من الأحاديث ويلقنونهم من الأوامر ؟

فكم من الآباء والأمهات يتنبهون إلى أن كثيراً من القصص العائلية والمشاحنات الزوجية لا يصح ذكرها أمام أبنائهم وبناتهم حتى لا يفقدوا روح العطف نحو أهلهم وحتى ينشأوا طاهرين مما يثقل ماضي أهلهم فيبدلوا حياة أسعد من حياتهم ويسعوا بروح من المحبة بعيدة عن البغضاء والشحناء وعن الاثرة والأنانية

هل فكر أحد منا في ذلك وعمل عليه في تربية أبنائه ؟ أولسنا في كثير من الاحيان نستحث أولادنا وبناتنا الى العمل من طريق بث روح الغيرة والحسد نحو الآخرين ؟ بل من طريق بذر بذور عدم الثقة والكراهة بين الاخوة . فكم من والد يقول لولده (أنا أحبك أكثر من أخيك — أخوك بطال — كلّ هذه القطعة ولا تخبر أخاك عنها أو اخفيها منهُ) وغير ذلك مما يعوّد الطفل منذ نعومة أظفاره الاثرة والانانية ويغرس في نفسه الغيرة والحسد حتى من اخوته

***

كذلك كان من نتائج عدم تفكيرنا في طرق معالجة أطفالنا أنهُ بينما يفكر كل منا في رفاهية اولاده المادية اذا به يهمل الجهة المعنوية اهمالاً تامًّا . فلقد كنا في ماضٍ ليس ببعيد نسمع أن الولد لا يصح لهُ أن يجالس أباه وان الزوجة لا تأكل مع زوجها وان الطاعة واجبة على كل منهما نحو رب البيت وما درى هؤلاء انهم كانوا بذلك يغرسون روح الذل والاستبداد في أبنائهم وبناتهم ويعطلون فيهم جميع الصفات الضرورية لجعلهم أفراداً أحراراً في مجتمع يحميهم ويعملون هم على رقيه

حقًّا لقد تغيرت تلك الحالة الآن ولكن تغيرها كان في الشكل أما في الجوهر فلا يزال كثير من الآباء والأمهات يتصورون ان الطفل يجب أن يربى على الادب والطاعة

فالأدب في عرفهم ، ان يجلس الطفل جلسة مخصوصة . وان لا يتحرك في مجلسه واذا ضرب فلا يبكي

وأما الطاعة فهي أن يتلقى الاوامر فيخضع لها مهما كانت وما دروا أن الطفل يحتاج دائمًا الى الحركة وان السكون في الطفولة الاولى علامة المرض والخمول وان من يضرب ولا يبكي فانما ينشأ ذليلاً حقيراً ، وان من يحرم حق التفكير لا يمكن أن يكون حرًّا ، وان النظام والطاعة هما الخضوع والخنوع ، وان الوالد لو فكر في حق ابنه عليه لما جعل لتفوقه المادي على ذلك الطفل ولا للنعرة الوقتية التي تأخذه باللائمة اذا ما اعترض الولد على أمر من أوامره ، اي أثر فيه ، في تربية ولده ولكن للأسف نجد الحالة الفكرية في أذهان الناس على الضد من ذلك

فهم يطلبون من الولد أن يكون أداة طيعة لهم من غير أن يفكروا فيما لتلك الحالة من الآثار العميقة في تكوين الطفل وما لها من نتائج بعيدة المدى

اذ ان من ربي على الخنوع لا يكون عاجزاً فقط بل ينقلب طاغية مستبداً اذا ما ولي الامر بدوره وأني لا ازال اذكر اني في المناصب التي شغلتها كنت احتاج الى كثير من التشجيع حتى يستطيع غالب الموظفين الذين كانوا تحت رآستي ان يبدوا رأيهم بحرية لانه انطبع في اذهان كثير من رؤسائهم ان الاحترام معناه ان يفنى المرؤوس في الرئيس وان الشخص الذي يعارض رأيك لا يمكن ان يكون محلاً لرضاك وان طاعة الرئيس معناها شل كل رأي يخالف رأيه . فلعمري كيف يمكن التعاون والحالة النفسية على ما قدمنا بل كيف يرقى مجتمع تلك حالة افراده

ولا أزال اذكر كذلك اني عندما كنت وزيراً للمعارف لاحظت عدم وجود اداة اتصال بين رجال التعليم ليبحثوا نظم التربية والتعليم ويعملوا على ترقيتها واصلاح ما فيها من العيوب ففكرت في انشاء مجلة لتكون اداة لتلك الابحاث وفعلاً دعوت بعض رجال المعارف لمباحثتهم في الامر فسألني احدهم وهل يكون لتلك المجلة حق نقد النظم الحاضرة فقلت له نعم لان سبيل التقدم والرقي هو معرفة عيوب الحاضر ولا يمكن ان نصل الى ذلك بغير النقد وما دامت الابحاث محصورة في الحدود العلمية والفنية من غير ان تتعدى الى الاشخاص او السياسة او الدين فمجالها حر للباحثين . فاجابني وقد شعر بغرابة وقع سؤاله من نفسي بانه انما اراد الاستفسار لان الفكرة عرضت في عهد احد الوزراء الذين تولوا امر الوزارة قبلي ببضع سنين فاعترض عليها ذلك الوزير وقال كيف اسمح لرجال التعليم ومهمتهم الدفاع عن الوزارة ونظمها بنقد نظم التعليم

ايها السادة : ارجو ان لا يدهشكم هذا القول فلقد كان الوزير الذي اشير اليه معروفاً بين الناس بالحكمة وحسن التدبير وهو ممن تركوا في نفوس الكثيرين اثراً طيباً ولكن الامور اشتبهت علينا وتربية الاسرة فينا اضلتنا السبيل حتى صرنا لا نحس بآثار تلك التربية وما تركته فينا من الخنوع والرضى بالاستبداد فالتبس علينا الامر وصرنا نرى حسناً ما ليس بالحسن

***

وثمت نتيجة اخرى من نتائج تلك الحالة في الاسرة وهي ان ما يسمعهُ اطفالنا من احاديث ابويهم وأهليهم ومن عرض الخلافات الصغيرة والحقيرة امامهم ساعدنا على ان نغرس في نفوسهم روح الغيرة الخبيثة والحقد مما يضعف فيهم روح التعاون والعمل المشترك . ذلك انهُ انطبع في الاذهان من اثر الحياة المنزلية وما نراه فيها من شحناء وبغضاء ، والتعلق بكثير من سفاسف الامور ، والميل الى المناظرة الوضيعة ، واثارة الحقد الدفين في النفوس ، مما جعل الناس ينتقدون بعضهم بعضاً بسبب ومن غير سبب . ومما جعل الكثيرين يظنون انهم لا يستطيعون ان يجعلوا لانفسهم مكانة او احتراماً الاّ اذا اضعفوا من قيمة غيرهم وشوّهوا اعمالهم . فكم سمعنا عن المديرين في الاقاليم والرؤساء في المصالح والوزراء في الدواوين انهم يجعلون همهم تشويه ما عمله اسلافهم حتى يكون لهم وحدهم الفخر . وكم سمعنا عن خيبة دبّت بين جماعات انشئت لتعمل متحدة . ذلك لان الاشخاص ربوا على

القطيعة والحقد فلا يفهمون روح التعاون . ولست أود ان اذكر امثلة ما نراهُ في مصر فليس من موضوعي الليلة ان اتعرض للحياة العامة ولكني اذكر اني كنت في تركيا عام ١٩٢٩ وذهبت لمشاهدة مباراة كرة القدم بين الفريق التركي والفريق المصري ولقد كان افراد الفريق المصري متفوقين على زملائهم الاتراك ولكن للاسف كان الكثيرون منهم اذا امسك بالكرة حاول ان يصل بها الى الهدف لينال هو فخر الانتصار وحده . اما الفريق التركي فكان الواحد منهم يأخذ الكرة فاذا احسَّ بان هجوماً يدبَّر ضده مررها الى زميل له وهكذا حتى انتهى الامر بانتصار الفريق التركي على المصري ونالت تركيا فخر الانتصار مع ان افرادها كانوا اقل كفاءة من افراد الفريق المصري ولكنهم عرفوا سرَّ النجاح في الحياة خفي علينا ألا وهو ان التعاون يزيد القوى قوة ويخلق سبباً جديداً للنصر تعم فائدته الافراد .

فالطفل عندنا متروك لمحض الصدفة فهو اشبه بنبات الغابة واحراشها ينمو فوضى لا نظام لها ويقتل قويها ضعيفها ويتغلب خبيثها على طيبها . ولو شئنا له نجاحاً وللانسانية فلاحاً لتعهدناه كما يتعهد النبات او الاشجار المثمرة التي نحرث لها الارض ونتعهدها بالسقيا ونطهرها من الحشرات والنباتات الخبيثة ونعمل على تلقيحها باحسن الثمار واجود الاصناف . ولا شك أن هذا عمل شاق يحتاج الى النشر والدعاية والمثل الصالح وبالجملة ان رمنا فلاحاً وجب ان نعنى بحالة أولادنا الفكرية والمعنوية كما نعني بحالتهم المادية والصحية

لقد شعر كثير من الناس بنتائج تلك الحالة السيئة فارادوا معالجتها من طريق معاملة اولادهم معاملة طيبة وغرس روح الاستقلال فيهم ولكن تغلبت فيهم روح الزهو فنظروا الى اولادهم لا نظرة الامين على فلذة كبده بل نظرة المفاخر بجمال ولده . ولذلك اسرفوا في طريقة لباسهم . فكم من الاطفال عندنا يلبسون الحرير والملابس الثمينة بينما ثروة الوالدين لا تسمح بشيء من ذلك . وكم من الامهات يباهين بان ابنهنَّ يلبس احسن من لبس ابن فلان الثري وكم منهنَّ بلغ بهنَّ الزهو ان لا يشترينَ ملابس الاولاد الا من اوربا غير عابئات بالاثر السيء الذي ينطبع في ذهن الطفل فيركز اهتمامه في تلك الناحية حتى اذا ما شبَّ وجد والديه غير قادرين على ان يحفظا له من النعيم ما عوّداه في نشأته الاولى فيقع الخلاف في الاسرة ويغلو الولد في طلباته وهكذا تكون الاسرة ضحية صراع داخلي وفريسة تبذير ينتهي بخرابها

ومن الاسف أن هذا الضعف قد ينشأ بطرق شتى خصوصاً في تربية البنت فان كثيراً من السيدات يضعنَ مسئلة الزي في المرتبة الاولى من تفكيرهنَّ ولا يحسبنَ لثروتهنَّ أو ثروة ازواجهنَّ اي حساب فتنشأ البنت في هذا الوسط ضعيفة مبذرة لا تستطيع ان تقوم بواجبها نحو منزلها ولا نحو اولادها وترى الثروة التي لديها قليلة حتى ولو كانت واسعة ، لانها لا تستطيع لنفسها تدبيراً وبذلك ينتقل الآباء من خطإ الى خطإ آخر . ذلك أن معالجة أمور الطفل من أدق المسائل واعقدها

وهي اجدرها بالعناية والاهتمام ولا يصح للانسان ان يأخذ برأي من غير ان يقلب الامور على جميع وجوهها وأن يبحث عن ذوي الرأي والتجربة للاسترشاد بهم في معالجتها . ومع ذلك فلا ينسى الانسان ان التربية والوسط ليسا كل شيء فان للطبيعة نفسها ولميراث الطفل من الاجيال العديدة التي تركزت فيه اثراً فعالاً في تكوينه فنحن بمساعدتنا انما نساعد الطبيعة او نعدلها ولكننا لا نستطيع ان نخلقها خلقاً جديداً . وما الاسرة الا صورة مصغرة للمجتمع الذي نعيش فيه فاذا رمنا للمجتمع صلاحاً وجب ان نبدأ بالاسرة اولاً فاذا ما صلحت الاسرة عملت هي على اصلاح المجتمع

* * *

والآن وقد عرضت لاحد عوامل الضعف في تكوين الاسرة للفرد انتقل الى عامل من عوامل الضعف في تكوين الفرد في المدرسة

كثيراً نسمع الشكوى المرة من حالة التعليم ونسمع الصرخة العالية ضد نشر التعليم في الارياف لانه يحول بين المتعلمين والغيط فالولد الذي يدخل المكتب او الكتّاب يرفض بعد ذلك ان يتولى عملاً من اعمال الزراعة وكثيراً ما نقرأ في الجرائد عن العاطلين من حملة الشهادات وما يجب لهم من التشجيع ونقرأ الاقتراح تلو الاقتراح عن وسائل تفريج تلك الازمة وما يجب على الحكومة ازاءها . وبعد ان كان الناس يقدسون العلم ويرونه خطوة نحو الكمال في الانسانية اصبحوا الآن يشكون في فائدته ويرونه خطراً على المجتمع الانساني ، ومما يجب ان نحتاط من تناوله الا بالقدر الضروري . وبعد ان كان الشك في فائدة العلم قاصراً على طبقة الجهلة من الناس اصبح حديث الجميع ففي ارقى المجالس العلمية نسمع كثيراً من الناس يقولون بوجوب حصر التعليم حتى لا تزداد طبقة المتعلمين الذين لا يجدون وظائف في المجتمع فينقلبون خطراً عليه ويكونون اداة اضطراب في البلاد

واذا ناقشت هؤلاء القائلين اجابوك على الفور ، الا ترى كيف ان حملة الشهادات اصبحوا عالة على الامة ، الا تراهم في كل يوم يأتون اليك طالبين وظائف حكومية ، وكيف يكون الحال اذا نحن ظللنا مستمرين في تلك السياسة . أليس الاجدر بنا ان نعترف بالامر الواقع ونواجه الحقائق كما هي ونترك الافكار النظرية لنكون عمليين ونتدرأ خطر الفوضى عن البلاد قبل استفحال الخطب

فهل حقيقة ان الامور انقلبت رأساً على عقب الى هذا الحد ؟ وهل اصبح العلم الذي كنا نفاخر به وكنا نباهي بالحكمة الجارية « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » و « اطلبوا العلم ولو في الصين » أصبحت خرافة من الخرافات

لا يا سادة ! لم تنقلب الحقائق ولكننا رأينا حالة شاذة ورأينا اضطراباً في المجتمع كان مظهره حملة الشهادات ومتخرجي المدارس ودور العلم فربطنا ظاهرتين احداهما بالاخرى واختل بنا المنطق فاعتقدنا بأن الخطر ناشىء من العلم ونادينا بوجوب الحد منه بتقليل عدد طلابه ولكننا لحسن الحظ لم نؤمن بذلك المذهب كل الايمان فليس منا من يرضى بأن يعمل بتلك النظرية بالنسبة لاولاده واذا طبقت على احدهم كان اول ساع الى المطالبة بالاستثناء الملح في الدفاع عن وجوب فتح ابواب

التعليم لجميع الناس والآن اضطروا ان يرسلوا اولادهم الى اوربا . فالحمد لله الذي جعل غريزة الدفاع من النفس اقوى الغرائز فهي تتغلب على جميع النظريات وكثيراً ما تصل من طريقها الى الحل الصحيح غير عابئة بما ينسجه المتفلسفون من النظريات وما ينادي به السفسطائيون من المبادىء

فالحق ايها السادة ان العلم لا يزال هو هو له من القداسة ما كان له في الماضي ولكن نظم التعليم والمدرسة عندنا فيها من العيوب ما جعلنا نشعر بتلك الازمة الشديدة التي نشكو منها اليوم فضل كثير من الباحثين ونسبوا الى العلم ما هو راجع الى نظم التعليم والمدرسة . فليس يحتاج الى دليل او برهان ان العلم زيادة في المعرفة واذا زادت معرفة الانسان كان اقدر على مكافحة الحياة واكثر على استثمارها واستدرار خيراتها فاذا ظهر لنا خطر من حالة من نسميهم متعلمين فانما يكون ذلك لعيب في تعليمهم وضلال في طريقة تنشيئهم فالتعليم الاولي والابتدائي بل والثانوي لا يمنع الولد من ممارسة اي عمل من الاعمال البدنية في اوربا بل يزيده استعداداً للعمل ويفتح له مجالا من التقدم فيه اكثر من غيره . اما نحن فبمجرد ان يصل الولد الى الشهادة يعتبر نفسه كفئاً لتولي وظيفة حكومية ولا يرضى بمزاولة عمل ابيه من تجارة او برادة او طهي او غير ذلك

فما السر في هذا ؟ لقد استعرضت امامي عوامل عديدة لتلك الحالة منها ان المتعلمين عندنا لا يزالون قليلي العدد فمن تعلم منا يعتبر نفسه انتقل الى طبقة ارستوقراطية تعطيه حقوقاً اكبر من حقوق زميله الاوربي تفسر له وجاهته ولكن كيف لم تستطع الازمة الشديدة التي مررنا بها ان تخفف من غلواء هؤلاء الناس بل كيف لا يغير تلك الحالة ما نراه عليه حملة الشهادات من الفقر والعوز ؟ الجواب على ذلك ان هذا كان من شأنه ان يغير تلك الحالة تماماً لولا ان لدينا في تعليمنا عنصراً يبدو في ظاهره بسيطاً ولكنه في الواقع عميق الاثر في نفسيتنا وطريقة تفكيرنا . ذلك العنصر هو اللباس الذي يرتديه الصبية في المدارس . فلقد قضى النظام المتبع عندنا في المدارس الابتدائية ان يلبس الولد الملابس الافرنجية فهو منذ صغره يلبس لباساً مخالفاً تمام المخالفة للباس والديه فيثبت في ذهن الولد ، بل وفي ذهن والديه ، انه صار من طبقة غير طبقتهم ، فهو من الحكام ، وأهله من المحكومين ، فلا يصح له منذ تلك الساعة ان يعمل عملهم ولا ان يساعدهم في مهنتهم فهو لن يكون نجاراً ولا براداً ولا طاهياً بل ولا يصح له ان يكون ناظر زراعة ولا بائعاً ولا تاجراً ويجب ان يكون افندياً في الديوان ! هذا هو السر في تلك الازمة المريعة ، وفي ان المتعلمين من الاوربيين يقبلون تلك المهن ويباشرونها بأنفسهم وقد يتدرجون فيها الى ان يكونوا اصحاب ثروة وجاه عريض . أما نحن فلا نتولاها ولا نصل فيها الى درجة ما ذلك انهم لا يأنفون العمل مهما كان نوعه بل يحبونهُ ويحترمونه ويباهون به . اما نحن فنراه مرتبة اقل من مرتبة المتعلم

ولقد شعر بعض رجال التعليم بهذا الضرر في المدارس الابتدائية وتلافوا جانباً منه في الكتاتيب ولكن تصرفهم ظل ناقصاً فلم يقض على ذلك الشعور في نفس الطفل فظل ولد الكتّاب مخالفاً لأبويه

وانف من المزرعة التي يعمل فيها والده عاري القدمين معرضاً للطين والتراب يلوث ملابسه وجسمه

اما علاج تلك الحالة فهو ان يكون المكتب صورة لحياة اولاد المنزلية بحيث لا تخرجه عن حالة الوسط الذي يؤهل للعمل فيه وبهذا العلاج تمنع الفوضى الفكرية التي تلازم الآن كل من دخل المكتب . اما في المدرسة فيجب ان يلبس الصبية لباساً بسيطاً متيناً . ومن الغريب ان مدارس البنات حتى ارقاها من المدارس المصرية والاوروبية هنا تنحو هذا النحو فتلبس البنات جميعهن سراويل من نوع واحد مصنوعة من قماش قليل الثمن . اما الاولاد فيلبسون اربطة الرقبة الحريرية والاقمصة الغالية الدقيقة الصنع والاحذية الرشيقة القد . فما هذا ايها السادة ! وكيف ننتظر لهذا الولد ان ينشأ رجلاً قوياً يشتغل بساعديه ولا يبالي بمجهود الرجال الجثماني

نشئوا الاولاد تلك النشأة وسترون منهم رجالاً يحبون العمل ويهتمون به ويفاخرون بنجاحهم فيه فيكونون ملوك الصناعة والزراعة والتجارة كما هو الحال في اوروبا وامريكا . أما تلك المعيشة الناعمة فليست من شأن الرجال الناهضين

جربوا هذا وقدروا تأثيره الادبي والنفسي في الاطفال وذويهم ثم قدروا ما يدره من الخير على تلك الطبقة المتوسطة من الامة التي رزقت من الصفات الخلقية ومن حب العمل والاجتهاد والمثابرة ما تغتبط له اشد الاغتباط بما يقلل من تكاليف اولادهم ما يجعلهم يستطيعون الاقتصاد في معيشتهم لان تربية اولادهم تصبح في متناول ايديهم فينشئونهم نشأة صالحة تزول معها اسباب كثيرة من الخلاف الذي يترتب على كون الآباء غير قادرين على اجابة اطماع اولادهم في الملبس والمعيشة لان المناظرة فيها ستزول لارتداء الاولاد جميعاً رداء واحداً

***

هذه ناحية من نواحي الضعف في المدرسة وهناك ناحية اخرى ترتبط بها اذ اننا كما نسمع الشكوى عالية من اصحاب الشهادات كذلك نسمع الشكوى عالية من جانب الجامعة ورجال التعليم العالي من ان مستوى الثقافة في الشهادة الثانوية اقل مما يؤهل للدراسات العالية ولذلك طالب الكثيرون بقصر من يدخلون المدارس العالية على عدد محدد او نسبة مخصوصة من النجاح في الشهادة الثانوية

ونحن من جهة أخرى نسمع صيحة داوية لآباء الشبان الحائزين للشهادة الثانوية الذين لم يقبلوا في المدارس العالية قائلين لنا ماذا نعمل بأبنائنا وقد وصلوا الى درجة من العلم هي باقراركم كافية لتدرجهم في التعليم العالي

وبين هذين الرأيين نرى وزارة المعارف تتذبذب في تطبيق المبادىء فهي طوراً مع الفريق الاول وطوراً مع الفريق الثاني فاذا ما اتبعت الرأي الاول كثر عدد العاطلين واذا ما اتبعت الرأي الثاني انحط مستوى التعليم ونال الشهادات العالية من ليسوا اهلاً لتولي الاعمال التي يجب ان يؤهل لها ذلك النوع من التعليم . فاذا لم يجدوا عملا صرخوا هم بدورهم صرخة طلاب البكالوريا الذين لم

يجدوا مجالاً في المدرسة وبذلك تكون الازمة انتقلت من حائزي الشهادة الثانوية الى طلاب الشهادات العالية او حائزيها

ولو اننا واجهنا الامور على حقيقتها لكان علاجها ميسوراً . ذلك اننا نرى ان المدرس العالية تشترط نسبة للنجاح هي ٦٠ في المائة بينما يرى الطالب في الشهادة الثانوية اذا حاز الامتحان نسبة اربعين في المائة والبون شاسع بين الدرجتين في التحصيل . ومن الواجب ان يكون الطالب في الشهادة الثانوية مؤهلاً حقيقة للدراسة العالية وان تكون مقدرته على التحصيل قريبة من الدرجة المطلوبة للدراسة العالية وبذلك يزول الابهام الموجود في النظام الحاضر ويرى الآباء والابناء ميزاناً صحيحاً يمكن ان يقيسوا به استعداد الابناء ويكون الحاصلون على الشهادة الثانوية قادرين على الاستمرار في الدراسة العالية ويحق لهم حينذاك ان يطالبوا وزارة المعارف بأن تعمل على ايجاد الامكنة الكافية لجميع المتعلمين الذين وصلوا الى درجة معينة لمتابعة دراستهم العالية . وسينتهي الخطر الحاضر لان العدد سيقتصر بمجرد تطبيق هذا النظام على من يكونون صالحين حقاً لتلقي التعليم العالي والذين تؤهلهم كفاءتهم للاعمال المنتجة بعد ذلك

وهذا الذي أريده في المدرسة العالية هو نفسه الذي يرشدني الى الحل الصحيح في بعض مشكلة الدراسة الثانوية فشهادة الكفاءة أو شهادة الدراسة الثانوية قسم اول يجب أن يكون على درجتين احداها يعد للدراسة الثانوية فالعالية وبالتالي تعد لمستوى الثقافة والتعليم النظري والعملي العالي والاخرى تعد للمدارس الصناعية والزراعية والتجارية المتوسطة

أما الشهادة الابتدائية فلعمري لست أدري ما هو الموقع لبقائها سوى تحميل الوزارة والمدرسين والممتحنين عبئاً وتضييعهم الوقت على غير جدوى لاجراء امتحانها

وهذا فضلاً عما هو ثابت في أذهان الناس جميعاً من أن الشهادة تؤهل صاحبها للعمل وتعطيه حقاً على الدولة والمجتمع فمن حاز شهادة رأى لنفسه هذا الحق وتركز في ذهنه المطالبة بمستوى معين من الوظائف والاعمال فما الداعي لابقاء تلك الحالة سوى مساعدة العوامل التي تتعاون على اشتداد الازمة وخلق طبقة غير القانعين في البلاد

لذلك نرى علاجاً لتلك الحالة ان تكون المرحلة الاولى هي شهادة الكفاءة

على أن يجعل الناجحون فيها فريقين : الفريق الممتاز الذي يكون رهن على استعداد لمتابعة الدراسة الثانوية فالعالية . والفريق الاقل استعداداً الذي يصلح لمتابعة دراسته في المدارس الصناعية والزراعية وغيرها واذا نحن جعلنا الوسط المعاشي في المدارس الابتدائية الى الكفاءة على ما قدمنا فان الاولاد لا ينفرون عند ذلك من مزاولة مهن آبائهم وأهليهم وبذلك نساعد على ايجاد طبقة نالت حظاً من التعليم تعمل بنشاط على رقي البلاد الصناعي والزراعي وتتلافى ازمة من اشد الازمات التي تهددنا في مستقبلنا ولغرس في نفوس الامة وشبيبتها ان العلم وحده عصب الحياة ومفخرتها

التربية ولغة الأطفال

لزكي المهندس استاذ التربية بدار العلوم

قد يخيل الى كثير من الناس ان التحدث الى الاطفال امر سهل المنال ولكنهم في الحقيقة واهمون ، فان قليلا منا هم الذين يوفقون الى استمالة الاطفال حين يتحدثون اليهم . ولقد يستطيع كثير من الناس أن يسوقوا المعاني الى نفوس الاطفال كرها ، ويدفعوها الى اذهانهم غصبا ولكن المربين — آباء او معلمين — لا يستطيعون ان يفخروا بهذا النوع من الاساليب ، لانهم يعلمون ان للاطفال لغة خاصة بهم ، واسلوبا يكاد يكون مقصوراً عليهم ، وليس من السهل على كثير من الناس ان يعرفوا هذه اللغة او يحذقوا هذا الاسلوب

هذا هو السبب في ان كثيراً من الآباء يعجزون عن افهام اطفالهم كل ما يريدون ، وهذا هو السبب كذلك في ان كثيراً من المعلمين يخفقون في ايصال الحقائق الى اذهان الاطفال وهم لا يشعرون

ومثل هذا يقال عن تلك الكتب التي توضع للاطفال . فقد رأينا المطابع المصرية في السنوات الاخيرة تخرج مئات الكتب ، التي يفرض مؤلفوها أنها تعين الاطفال على فهم دروسهم بأسلوب شائق ممتع ، ولكن نظرة واحدة في هذه الكتب خليقة ان تبين لك ان عدداً كبيراً منها يقصر دون هذه الغاية ، لا خطأ في مادة الكتاب ، ولا لعيب في طبعه ، ولا لخفاء في صوره ، بل لان المؤلف لم يوفق الى اختيار لغة تلائم الاطفال ، أو اسلوب يشوقهم ويستهويهم

[اخرج احمد عطية الله المؤلف المعروف بالتعاون مع مطبعة عيسى البابي الحلبي مكتبة للاطفال تحتوي على ٢٠ كتابا متباينة الحجم والشكل والموضوع . ويحمل احدها توطئة بعنوان « الطفل الحديث » تضم فصولا قيمة لطائفة من اعلام التربية في مصر ، نقلنا منها هذا الفصل لما احتوى عليه من المبادىء السليمة في تربية الاطفال]

والواقع ان التحدث او الكتابة للاطفال فن لا يحذقه الا قليل من الناس ، وهو ككل فن يقتضي علما واسعا ودربة مستمرة . واذا كان استهواء الكبار بالحديث او الكتابة في معظم الاحيان عسراً شاقا فاستمالة الاحداث قد تكون أشق وأصعب لانها تتطلب دراية واسعة بطبائع الطفولة ونزعاتها واسلوب تصورها كما تتطلب معاناة طويلة وتجارب واسعة ومرانا متواليا ، ومن اجل ذلك نرى ان هؤلاء الذين يعجزون عن التأثير في الاطفال في احاديثهم ومؤلفاتهم انما يخفقون لانهم لا يفهمون لغة الاطفال ، ولا يحذقون الاساليب التي تلائم نفوسهم وتستهوي أفئدتهم . ومن الخطأ ان يعمد المحدث او المؤلف الى لغة الكبار فيختصرها وينقص من اطرافها ويغير من

ألفاظها وعباراتها ثم يلقيها بعد ذلك الى الاطفال واهماً بأنها اصبحت سائغة لهم قريبة المنال من مداركهم ؛ فقد علمت ان للاطفال لغتهم واسلوبهم وان الطفل ليس رجلاً صغيراً ولا الرجل طفلاً كبيراً ، فلكلٍّ عالمه وعقليته واسلوبه ولغته ، فتتفاوت بينهما في النوع لا في الدرجة

ولقد أبان العلم ودلت التجارب على ان لغة الطفل وثيقة الارتباط بحياته العقلية وانها تنمو — كما ينمو عقله وجسمه — على التدريج ، خاضعة في هذا النمو لقوانين نفسية ثابتة ، ممثلة في نموها مراحل التطور التي سلكتها لغة الانسانية من بدء الخليقة الى الآن ولسنا هنا في مقام يسمح لنا ببيان تلك القوانين النفسية التي تسيطر على لغة الاطفال ولكن يكفي هنا أن نبين لك في إيجاز أظهر الصفات والخصائص التي تمتاز بها هذه اللغة وأهم القواعد التي يجب أن تراعى في أسلوب التحدث اليهم أو الكتابة لهم

﴿مميزات لغة الاطفال﴾ تمتاز لغة الاطفال فيما بين الخامسة والعاشرة تقريباً بميزات أظهرها ما يلي :

(١) ضيق نطاق هذه اللغة ، فنطاق الاطفال اللغوي لا يكاد يتجاوز عشرات من الالفاظ والعبارات ولكن الذي يسترعي الانتباه في هذا المحصول اللغوي ، هو الكثرة المطلقة للأسماء دون الافعال والحروف والواقع أن أسماء الذوات تكوّن الشطر الأول من مادتهم اللغوية ، أما الأفعال فنطاقها محدود جداً لا تكاد تتجاوز تلك التي يستعملها الطفل في حاجته الطبيعية الاولية من مثل أكل وشرب ونام وجلس ، ولا تكاد الحروف التي يستعملها الاطفال تتجاوز من الى على ثم واو العطف

(٢) يبدأ الطفل بعد ذلك يتشوقه العمل والحدث فيأخذ في معرفة الافعال ، وينهض من هذا المستوى الطبيعي الى مستوى أرقى ، فهو يلعب ويتعلم من طريق اللعب الانكسار والالتواء والضغط والوثب والمشي ، وما الى ذلك من أنواع الحدث التي تعرض له في ألعابه ويدرك أثرها ، ومن ثم يأخذ في استعمال هذه الافعال التي يزداد بها قاموسه اللغوي

(٣) يكوّن الاطفال مما عرفوه من الاسماء والافعال جملاً يتحدثون بها الى رفاقهم وآبائهم ، ولكن هذه الجمل في مجموعها قصيرة المدى مستقل بعضها عن بعض ، وجلها جمل اسمية لان الاسماء وبخاصة أسماء الذوات تشوق الاطفال وتستهويهم . ومما يلاحظ أن حديث الاطفال لا يكاد يجاوز المحسوسات فليس لأسماء المعاني مثل « واجب وفضيلة وصدق وأمانة » مكان في محصولهم اللغوي حتى أنهم لا يستطيعون ان يفهموا في الدور الاخير من طفولتهم هذه المعاني الا بتجريدها من المعاني والباسها ثوباً محسوساً يجس ويلمس ، فهم يفهمون من الفضيلة رجلاً فاضلاً ومن الصدق تلميذاً يقول الحق

(٤) فلا اسماء المعاني ولا الالفاظ الكلية تشوق الاطفال وتستهويهم الا في نحو السنة الثالثة عشرة من أعمارهم ، حينئذ تعينهم تجاربهم في المحسوسات على عقد الموازنات والمقابلات ، واستنزاع الصفات المشتركة وتجريدها من الذوات ولادراك الصلات والعلاقات بين الاشياء ، ويومئذ ينزعون الى المعقولات والالفاظ الكلية واسماء المعاني والحروف والادوات التي وضعت للتمني والترجي والاستدراك وما اليها . هذه صورة مكبرة لما تكون عليه لغة الأطفال . أما القواعد التي يجب

مراعاتها عند التحدث اليهم أو الكتابة لهم فيمكن ادماجها فيما يلي :

(١) مراعاة ما قدسناه لك من الخصائص والصفات ، بحيث يكون كل اسم مقروناً بمسماه أو على الاقل بصورة تمثل مدلوله ، وأن يكون كل حدث أو فعل مصحوباً بتصوير معناه . هذا واجب في جميع أدوار الطفولة ، وهو في الدور الاول منها أوجب . اما الجمل فيجب أن تكون قصيرة تعبر كل منها عن معنى مستقل بالفهم . فاذا كنت بصدد التعبير عن معنى طويل وجب أن تقسم هذا المعنى الكلي الى معان جزئية وتعبر عن كل معنى بجملة قصيرة في مبناها محدودة في معناها

(٢) اختيار الالفاظ الشفافة التي تنم على معانيها في وضوح وجلاء ، معتمداً في ذلك على المعاني الحقيقية الوضعية للألفاظ والعبارات ، فان الطفل لا يستطيع أن يدرك المعاني والعبارات الملتوية المملوءة بالمجازات والاستعارات والكنايات او ما اليها من المحسنات اللغوية ، وقد يضطر المحدث او المؤلف احياناً الى عقد التشبيهات لايضاح المعاني ، ولكن شرط ذلك ان يكون المشبه به واضحاً جليًّا في أذهان النشء ، وان يكون وجه الشبه مما تستطيع عقولهم ادراكه

(٣) مراعاة الوضوح التام في الحديث او الكتابة ، وفي هذا تتفاوت اقدار المعلمين والمؤلفين فكثير من هؤلاء لا يستطيعون ان ينزلوا الى مستوى الطفل ويدرجوا معهُ في اخيلته واسلوب تصوره فتجيء عباراتهم نابية عن ذوقه متنافرة مع طبعه ، ومن ثمَّ وجب ان يتبسط في وضع الحقائق او ألقائها تبسطاً تامًّا ، بحيث تستطيع ان تجد سبيلها الى ذهنه في غير عنت او اكراه ، وقد يقتضي هذا بعض التكرار والاعادة للمعنى الواحد ، ولكن في أثواب مختلفة ، وصور شتى وقد يكون هذا واجباً اذا استعملت ألفاظاً أو عبارات لا عهد للاطفال بها

(٤) مراعاة التأثير والروعة في نفوس الاطفال ، وبخاصة اذا كان موضوع الحديث أو الكتابة قصصاً ، فالمحدث أو المؤلف فنان ، وهو بهذه الصفة يجب أن يعطي الفن حقه من التأثير في نفس السامع أو القارىء . والاَّ كانت عباراته ميتة لا حياة فيها ، وليس كل الناس يستطيعون أن يكونوا فنانين . ولكن هناك بعض أفراد وهبوا خصوبة في الخيال ولباقة في أسلوب الوضع ومرونة في التعبير ، بحيث يستطيعون أن يبلغوا من نفوس السامعين أو القارئين ما لم يطمح فيهِ العلماء والباحثون . وقد رأينا بيننا من مهرة المعلمين من يستطيع أن يجعل من أشد المعاني تجرداً صوراً محسوسة ملموسة اذا تحدث أو كتب

(٥) وغني عن القول أن تحدث الاطفال يجب أن يكون «ممثلاً» حاذقاً فصوته ونغمته ونبرانهُ وتشخيصه للمعاني وحسن اداته للعبارات ، كل هذا مضافاً الى حسن بيانه ، مما يؤثر في نفوس الاحداث تأثيراً كبيراً . هذا مجمل ما يجب على المحدث او المؤلف مراعاته ، سردناه لك في ايجاز من غير ان نعرض للاصول النفسية العلمية التي يستند اليها . وحسبك منها ان ترى ان التحدث او الكتابة للاطفال ليس من الهنات الهينات ، كما يخيل الى كثير من الناس